موجز في التّفسير

سورة التغابن

سليمان بيضون

*** السّورة الرابعة والسّتّون في ترتيب سوَر المُصحف الشّريف، نزلت بعد سورة التحريم.**

*** سُمّيت بـ «التغابن» لقوله تعالى في الآية التاسعة منها: ﴿.. ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ..﴾.**

*** آياتها ثماني عشرة، وهي مدَنيّة، مَنْ قرأها في فريضة كانت شفيعةً له يوم القيامة كما عن الإمام الصادق عليه السلام.**

في ما يلي موجز في تفسير السّورة المباركة اخترناه من تفاسير: (الميزان) للعلّامة السّيّد محمّد حسين الطّباطبائيّ، و(الأمثل) للمرجع الدّينيّ الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، و(نور الثّقلين) للشّيخ عبد عليّ الحويزيّ.

«يوم التغابن: يومُ القيامة؛ لظهور الغَبن في المبايعة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ..﴾ البقرة:٢٠٧، وبقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ..﴾ التوبة:١١١، وبقوله: ﴿.. إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا ..﴾ آل عمران:٧٧، فعلموا أنّهم غُبنوا فيما تركوا من المبايعة، وفيما تعاطوه من ذلك جميعاً.

وسُئل بعضُهم عن يوم التَّغَابُنِ؟ فقال: تبدو الأشياءُ لهم بخلاف مقاديرهم في الدّنيا. قال بعضُ المفسّرين: أصل الْغُبْنِ: إخفاء الشيء، والْغَبَنُ بالفتح: الموضعُ الذي يَخفى فيه الشيء».

(المفردات، الراغب الأصفهانيّ)

هدف السورة

(**تفسير الميزان**): «السورة شبيهةٌ بسورة الحديد في سياقٍ كسياقها، ونَظْمٍ كنَظْمِها، كأنّها مُلخّصة منها، وغرَضُها تحريض المؤمنين وترغيبهم في الإنفاق في سبيل الله، ورفْع ما يهجس في قلوبهم ويدبّ في نفوسهم من الأسى والأسف على المصائب التي تهجم عليهم في تحمّل مشاقّ الإيمان بالله، والجهاد في سبيل الله والإنفاق فيه، بأنّ ذلك كلّه بإذن الله.

والآياتُ من صدر السورة تقدِمة وتمهيد لبيان الغرض المذكور، تُبيّن أنّ أسماءه، تعالى، الحسنى وصفاته العليا، تقضي بالبعث ورجوع الكلّ إليه سبحانه، رجوعاً يُساق فيه أهلُ الإيمان والعمل الصالح إلى جنّةٍ خالدة، وأهلُ الكفر والتكذيب إلى نارٍ مؤبّدة، فهي تمهيدٌ للأمر بطاعة الله ورسوله، والصبر على المصائب والإنفاق في سبيل الله من غير تأثّرٍ من منع مانعٍ، ولا خوفٍ من لَوْمة لائم».

محتوى السورة

(**تفسير الأمثل**): يمكن تقسيم هذه السورة من حيث المواضيع التي احتوتها إلى عدّة أقسام:

١ - بداية السورة التي تبحث في التوحيد وصفات الله تعالى وأفعاله.

٢ - حثّ الناس على ملاحظة أعمالهم ظاهراً وباطناً، وأن لا يغفلوا عن مصير الأقوام السابقين.

٣ - الحديث عن المعاد، وأنّ يوم القيامة «يوم تغابن»، تُغبن فيه جماعة وتفوز فيه جماعة.

٤ - الأمر بطاعة الرسول، صلّى الله عليه وآله، وتحكيم قواعد النبوّة.

٥ - يأمر الله تبارك وتعالى في القسم الأخير من السورة بالإنفاق في سبيله، ويحذّر من الانخداع بالأموال والأولاد والزوجات. وتختم السورة بذكر صفات الله تبارك وتعالى.

ثواب تلاوة السورة

*** عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ التَّغابُنِ رُفِعَ [دُفِعَ] عَنْهُ مَوْتُ الفَجْأَةِ».**

*** وعن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه قال: « مَنْ قَرَأَ سورَةَ التَّغابُنِ فِي فَرِيضَةٍ كانَتْ شَفيعَةً لَهُ يَوْمَ القِيامَةِ، وَشاهِدَ عَدْلٍ عند من يُجيزُ شهادتها، ثمّ لا تُفارِقُهُ حَتّى يَدْخُلَ الجَنَّةَ».**

تفسيرُ آياتٍ منها

قوله تعالى: ﴿..فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ..﴾ الآية:٢.

سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن الآية فقال: «عَرَفَ اللهُ إيمانَهُمْ بِوِلايَتِنا وَكُفْرَهُمْ بِها؛ يَوْمَ أَخَذَ عَلَيْهِمُ الميثاقَ في صُلْبِ آدَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، وَهُمْ ذَرٌّ».

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَا..﴾ الآية:٨.

سأل أبو خالد الكابليّ الإمام الباقر عليه السلام عن الآية، فأجاب: «يا أَبا خالِدٍ، النّورُ، وَاللهِ، الأئِمَّةُ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ، صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، إلى يَوْمِ القِيامَةِ، وَهُمْ، وَاللهِ، نورُ اللهِ الّذي أَنْزَلَ، وَهُمْ، وَاللهِ، نورُ اللهِ في السَّماواتِ وَفي الأَرْضِ. وَاللهِ يا أَبا خالِدٍ، لَنورُ الإمامِ في قُلوبِ المُؤْمِنينَ أَنْوَرُ مِنَ الشَّمْسِ المُضيئَةِ بِالنَّهارِ، وَهُمْ، وَاللهِ يُنَوِّرونَ قُلوبَ المُؤْمِنينَ وَيَحْجُبُ اللهُ، عَزَّ وَجَلَّ، نورَهُمْ عَمَّنْ يَشاءُ فَتُظْلِمُ قُلوبُهُمْ. وَاللهِ يا أَبا خالِدٍ، لا يُحِبُّنا عَبْدٌ وَيَتَوَلّانا حَتّى يُطَهِّرَ اللهُ قَلْبَهُ، وَلا يُطَهِّرُ اللهُ قَلْبَ عَبْدٍ حَتّى يُسَلِّمَ لَنا وَيَكونَ سِلْماً لَنا، فَإِذا كانَ سِلْماً لَنا سَلَّمَهُ اللهُ مِنْ شَديدِ الحِسابِ وَآمَنَهُ مِنْ فَزَعِ يَوْمِ القِيامَةِ الأَكْبَرِ».

قوله تعالى: ﴿..ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ..﴾ الآية:٩.

النبيّ صلّى الله عليه وآله: «ما مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ - لَوْ أَساءَ - لِيَزْدادَ شُكْراً، وما مِنْ عَبْدٍ يَدْخُلُ النّارَ إلّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ - لَوْ أَحْسَنَ - لِيَزْدادَ حَسْرَةً».

قوله تعالى: ﴿..وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ..﴾ الآية:١١.

الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ القَلْبَ لَيَرَجَّجُ فيما بَيْنَ الصَّدْرِ وَالحَنْجَرَةِ حَتّى يُعْقَدَ عَلى الإيمانِ، فَإِذا عُقِدَ عَلى الإيمانِ قَرَّ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾».

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الآية:١٤.

الإمام الباقر عليه السلام: «.. وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ كانَ إذا أَرادَ الهِجْرَةَ إلى رَسولِ الله، صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، تَعَلَّقَ بِهِ ابْنُهُ وَامْرَأَتُهُ، وَقالوا: نُنْشِدُكَ اللهَ أَنْ تَذْهَبَ عَنّا وَتَدَعَنا فَنَضيعَ بَعْدَكَ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُطيعُ أَهْلَهُ فَيُقيمُ، فَحَذَّرَهُمُ اللهُ أَبْناءَهُمْ وَنِساءَهُمْ، وَنَهاهُمْ عَنْ طاعَتِهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْضي وَيَذَرُهُمْ، وَيَقولُ: أَما وَاللهِ، لَئِنْ لَمْ تُهاجِروا مَعي، ثُمَّ يَجْمَعِ اللهُ بَيْني وَبَيْنَكُمْ في دارِ الهِجْرَةِ لا أَنْفَعُكُمْ بِشَيْءٍ أَبَداً. فَلَمّا جَمَعَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يُحْسِنَ إِلَيْهِمْ وَيَصِلَهُمْ، فَقالَ: ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحيمٌ﴾».

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ..﴾ الآية:١٥.

أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يَقولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ إنّي أَعوذُ بِكَ مِنَ الفِتْنَةِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إلّا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلى فِتْنَةٍ، وَلَكِنْ مَنِ اسْتَعاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضِلّاتِ الفِتَنِ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ يَقولُ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ..﴾».

قوله تعالى: ﴿..وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الآية:١٦.

* الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ أَدّى الزَّكاةَ فَقَدْ وُقِيَ شُحَّ نَفْسِهِ».

** قال الفضل ابن أبي قُرَّة: رأيت أبا عبد الله، عليه السلام، يطوف من أوّل اللّيل إلى الصباح وهو يقول: «اللَّهُمَّ قِني شُحَّ نَفْسي». فقلت: جُعلت فداك، ما سمعتُك تدعو بغير هذا الدعاء. قال: «وَأَيُّ شَيْءٍ أَشَدُّ مِنْ شُحِّ النَّفْسِ، وَإِنَّ اللهَ يَقولُ: ﴿.. وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾».

يوم التّغابن، هو يومُ القيامة؛ ذلك أنّ الأشياء تبدو للكافرين بخلاف موازينهم في الدنيا، فيعلمون بأنّهم غَبنوا أنفسهم بتَركهم طاعة الله تعالى

﴿.. ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ..﴾

التوبة طهارةٌ من ألواث البُعد والشقاء

العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ

التوبة هي رجوعٌ من العبد إلى الله سبحانه بالنّدامة، والانصراف عن الإعراض عن العبوديّة، ورجوعٌ من الله إلى العبد رحمةً بتوفيقه للرجوع إلى ربّه، أو بغفران ذنبه. وهي إحدى الحقائق العالية الإسلاميّة والتعاليم الراقية القرآنيّة.

ما يلي مختصر بحث للعلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ رحمه الله، أورده في الجزء الرابع من موسوعته القيّمة (الميزان في تفسير القرآن) بعد تفسيره للآيتين ١٧ و١٨ من سورة النساء، وهما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

حلّل القرآن الكريم حال الإنسان بحسب وقوع الدعوة عليه وتعلُّق الهداية به، فوجده - بالنّظر إلى الكمال والكرامة والسعادة الواجبة له في حياته الأخرويّة عند الله سبحانه، التي لا غنى له عنها في سيره الاختياريّ إلى ربّه - فقيراً كلَّ الفقر في ذاته، صِفرَ الكفّ بحسب نفسه. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ فاطر:١٥.

وقال: ﴿..وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ الفرقان:٣.

فهو واقعٌ في مهبط الشقاء ومنحطّ البُعد ومنعزل المسكنة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ التين:٤-٥.

وإذا كان كذلك، فوروده منزلة الكرامة واستقراره في مستقرّ السعادة يتوقّف على انصرافه عمّا هو فيه من مهبط الشقاء ومُنْحَطّ البعد، وانقلاعه عنه برجوعه إلى ربّه، وهو توبتُه إليه في أصل السعادة؛ وهو الإيمان، وفي كلّ سعادة فرعيّة؛ وهي كلّ عمل صالح، أعني [بما تقدّم] التوبة والرجوع عن أصل الشقاء وهو الشرك بالله سبحانه، وعن فروعات الشقاء وهي سيّئات الأعمال بعد الشرك، فالتوبة بمعنى الرجوع إلى الله والانخلاع عن ألواث البُعد والشقاء يتوقّف عليها الاستقرار في دار الكرامة بالإيمان، والتنعّم بأقسام نِعم الطاعات والقربات، وهي بمعنى الرجوع إلى الله تعمّ التوبتَين جميعاً، بل تعمّهما وغيرهما.

التوبة رجوعٌ من الله تعالى إلى العبد بالتّوفيق

ثمّ إنّ الإنسان لمّا كان فقيراً في نفسه، لا يملك لنفسه خيراً ولا سعادة قطُّ إلّا بربّه، كان محتاجاً في هذا الرجوع أيضاً إلى عناية من ربّه بأمره، وإعانةٍ منه له في شأنه، فيحتاج رجوعه إلى ربّه بالعبوديّة والمسكنة إلى رجوعٍ من ربّه إليه بالتوفيق والإعانة، وهو توبة الله سبحانه لعبده المتقدّمة على توبة العبد إلى ربّه، كما قال تعالى: ﴿.. ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ..﴾ التوبة:١١٨.

وكذلك الرجوع إلى الله سبحانه يحتاج إلى قبوله بمغفرة الذنوب، وتطهيره من القذارات وألواث البُعد، وهذه هي التوبة الثانية من الله سبحانه المتأخّرة عن توبة العبد إلى ربّه كما قال تعالى: ﴿..فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ..﴾ النساء:١٧.

وإذا تأمّلتَ حقّ التأمّل وجدتَ أنّ التعدّد في توبة الله سبحانه إنّما عُرِضَ لها من حيث قياسها إلى توبة العبد، وإلّا فهي توبة واحدة، [و] هي رجوع الله سبحانه إلى عبده بالرحمة، ويكون ذلك عند توبة العبد رجوعاً إليه، قبلَها وبعدها.

وكذلك القرب والبُعد لمّا كانا نِسبيّين أمكن أن يتحقّق البُعد في مقام القرب بنسبة بعض مواقفه ومراحله إلى بعض، ويصدق

حينئذٍ معنى التوبة على رجوع بعض المقرّبين من عباد الله الصالحين من موقفه الذي هو فيه إلى موقفٍ أرفع منه وأقرب إلى ربّه، كما يشهد به ما يحكيه تعالى من توبة الأنبياء وهم معصومون بنصّ كلامه، كقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِ..﴾ البقرة:٣٧.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ..﴾ البقرة:١٢٧، إلى قوله: ﴿..وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ البقرة:١٢٨.

سبعُ حقائق عن التوبة

فتلخّص ممّا مرّ:

أوّلاً: أنّ نشر الرحمة من الله سبحانه على عبده لِمغفرة ذنوبه وإزالة ظلمة المعاصي عن قلبه - سواءٌ في ذلك الشرك وما دونه - توبةٌ منه تعالى لعبده (على عبده)، وأنّ رجوع العبد إلى ربّه لمغفرة ذنوبه وإزالة معاصيه، سواء في ذلك الشرك وغيره، توبةٌ منه إلى ربّه.

ويتبيّن به أنّ من الواجب في الدعوة الحقّة أن تعتنيَ بأمر المعاصي كما تعتني بأصل الشرك، وتندب إلى مطلق التوبة، الشامل للتوبة عن الشرك والتوبة عن المعاصي.

ثانياً: أنّ التوبة من الله سبحانه لعبده - أعمُّ من المبتدئة واللاحقة - فضلٌ منه كسائر النِّعم التي يتنعّم بها خلقُه من غير إلزامٍ وإيجابٍ يَرِد عليه تعالى من غيره، وليس معنى وجوب قبول التوبة عليه تعالى، عقلاً، إلّا ما يدلّ عليه أمثال قوله تعالى: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ..﴾ المؤمن:٣، وقوله: ﴿..وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ النور:٣١، من الآيات المتضمّنة لتوصيفه تعالى بقبول التوبة، والنادبة إلى التوبة الداعية إلى الاستغفار والإنابة وغيرها، المشتملة على وعد القبول بالمطابقة أو الالتزام، والله سبحانه لا يُخْلف الميعاد.

ثالثاً: أنّ التوبة كما يستفاد من مجموع ما تقدّم من الآيات المنقولة وغيرها إنّما هي حقيقةٌ ذاتُ تأثيرٍ في النفس الإنسانيّة من حيث إصلاحها وإعدادها للصلاح الإنسانيّ الذي فيه سعادة دنياه وآخرته. وبعبارة أخرى: التوبة إنّما تنفع إذا نفعت في إزالة السيّئات النفسانيّة التي تجُرّ إلى الإنسان كلّ شقاء في حياته الأولى والأخرى، وتمنعه من الاستقرار على أريكة السعادة. وأمّا الأحكام الشرعيّة والقوانين الدينيّة، فهي بحالها، لا ترتفع عنه بتوبة كما لا ترتفع عنه بمعصية.

رابعاً: أنّ الملاك الذي شُرّعت لأجله التوبة هو التخلّص من هلاك الذنب وبوار المعصية، لكونها - أي التوبة - وسيلةَ الفلاح ومقدّمةَ الفوز بالسعادة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿..وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ النور:٣١.

ومن فوائدها مضافاً إلى ذلك، أنّ فيها حفظاً لروح الرجاء من الانخماد والركود، فإنّ الإنسان لا يستقيم سيرُه الحيويّ إلّا بالخوف والرجاء المتعادلَين حتّى يندفعَ عمّا يضرّه وينجذبَ إلى ما ينفعه، ولولا ذلك لهلك. قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ..﴾ الزمر:٥٣-٥٤، ولا يزال الإنسان على ما نعرف من غريزته على نشاطٍ من الروح الفعّالة وجِدٍّ في العزيمة والسعي ما لم تخسرْ صفقتُه في متجر الحياة، وإذا بدا له ما يُخسر عمله ويُخيب سعيه ويبطِل أمنيّته استولى عليه اليأس وانسلّت به أركان

التوبة هي حقيقةٌ ذاتُ تأثيرٍ في النفس الإنسانيّة من حيث إصلاحها وإعدادها لسعادتها في الدّارَين

عمله، وربّما انصرف بوجهه عن مسيره آيساً من النجاح خائباً من الفوز والفلاح، والتوبةُ هي الدواء الوحيد الذي يعالجُ داءَه، ويُحيي به قلبَه، وقد أشرف على الهلَكة والرّدى.

خامساً: أنّ المعصية - وهي الموقف السوء من الإنسان - ذاتُ أثر سيّء في حياته لا يُتاب منها ولا يرجَع عنها إلّا مع العلم والإيقان بمساءتها، ولا ينفكّ ذلك عن الندم على وقوعها أوّلاً، والندمُ تأثّر خاصّ باطنيّ من فعل السَّيّء، **ويتوقّف على استقرار هذا الرجوع ببعض الأفعال الصالحة المنافية لتلك السيّئة الدالّة على الرجوع والتوبة ثانياً.**

وإلى هذا يرجع جميع ما اعتُبر شرعاً من آداب التوبة، كالندم والاستغفار والتلبّس بالعمل الصالح والانقلاع عن المعصية، إلى غير ذلك ممّا وردت به الأخبار وتعرّضت له كُتب الأخلاق.

سادساً: أنّ التوبة وهي الرجوع الاختياريّ عن السيّئة إلى الطاعة والعبوديّة إنّما تتحقّق في ظرف الاختيار وهو الحياة الدنيا، وأمّا فيما لا اختيار للعبد هناك في انتخاب كلٍّ من طريقَي الصلاح والطلاح، والسعادة والشقاوة، فلا مسرحَ للتوبة فيه.

ومن هذا الباب التوبةُ فيما يتعلّق بحقوق الناس، فإنّها إنّما تُصلِح ما يتعلّق بحقوق الله سبحانه، وأمّا ما يتعلّق من السيّئة بحقوق الناس ممّا يُحتاج في زواله إلى رضاهم فلا يُتدارك بها البتّة، لأنّ الله سبحانه احترمَ الناس بحقوقٍ جعلها لهم في أموالهم وأعراضهم ونفوسِهم، وعدَّ التعدّي على أحدهم في شيء من ذلك ظلماً وعدواناً، وحاشاه أن يسلبَهم شيئاً ممّا جعله لهم من غير جُرمٍ صدرَ منهم، فيأتي هو نفسه بما ينهى عنه ويظلمهم بذلك، وقد قال عزّ مِن قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا ..﴾ يونس:٤٤.

ومن هذا الباب أيضاً توبة من سَنّ سُنّة سيّئة أو أضلّ الناس عن سبيل الحقّ، وقد وردت أخبارٌ أنّ عليه مثلَ أوزار من عمِل بها أو ضلّ عن الحقّ، فإنّ حقيقة الرجوع لا تتحقّق في أمثال هذه الموارد لأنّ العاصي أحدث فيها حدثاً له آثارٌ يبقى ببقائها ولا يتمكّن من إزالتها، كما في الموارد التي لا تتجاوز المعصية ما بينه وبين ربّه عزّ اسمه.

سابعاً: أنّ التوبة وإن كانت تمحو ما تمحوه من السيّئات - كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿..فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ..﴾ البقرة:٢٧٥، بل ظاهر قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾ الفرقان:٧٠-٧١، وخاصّة بملاحظة الآية الثانية أنّ التوبة بنفسها أو بضميمة الإيمان والعمل الصالح توجب تبدّل السيّئات حسنات - إلّا أنّ اتّقاء السيّئة أفضل من اقترافها ثمّ إمحائها بالتوبة، فإنّ الله سبحانه أوضح في كتابه أنّ المعاصي كيفما كانت إنّما تنتهي إلى وساوس شيطانيّة نوعَ انتهاء، ثمّ عبّر عن المخلَصين المعصومين عن زلّة المعاصي وعثرة السيّئات بما لا يعادله كلُّ مدح ورد في غيرهم، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ..﴾ الحجر:٣٩-٤٢، وقال تعالى حكايةً عن إبليس أيضاً في القصّة: ﴿..وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ الأعراف:١٧.

فهؤلاء من الناس مختصّون بمقام العبوديّة التشريفيّة اختصاصاً لا يشاركهم فيه غيرُهم من الصالحين التائبين.

اتّقاءُ السيّئة أفضلُ من اقترافها ثمّ محوِها بالتّوبَة

الدَّعوة الحقّة تعتني بأمر المَعاصي كما تَعتني بأصل الشرك، وتندب إلى مُطلَق التوبة؛ الشّامل للتّوبة عن الشِّرك والتّوبَة عن المَعاصي